المجموعة التاريخية للصغار

عجائب رحلة ابن بطوطة

التقيُّ الملْتحي

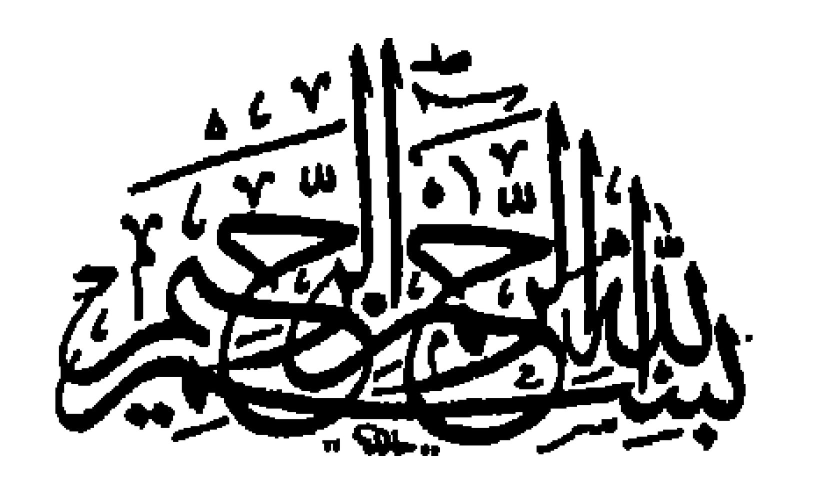


إعداد

عبد القادر محمد مايو

مراجعة

أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي س.ب : 78

هاتف : 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

التَّقِـيُّ المُلْتَحِـي

انْتَصَبَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ عَلَىٰ عَرْشِهِ فِي صَدْرِ المَجْلِسِ وَقَالَ لِنَدِيمِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ تَعَالَ يَا أَبَاعَبْدِ الله ، أُدْنُ مِنْ مَجْلِسِي لِتُحَدِّثَنِي بِعَجَائِبِ رِحْلَتِكَ ، وَقَدْ كُنْتَ انْتَهَيْتَ بِنَا إِلَىٰ عَمُودِ السَّوَارِي بِالإِسْكَنْدَرِيَّةِ ، وَكُنَّا عَلَىٰ اسْتِعْدَادٍ لِنَسْمَعَ مِنْكَ المَزِيدَ لَوْلاَ تَدَخُّلُ كَاتِبِنَا ابْنِ جُزَّيٍّ وَاسْتَفَاضَتُهُ بِالحَدِيثِ عَنِ الرَّمَّالِ الذِي احْتَلَّ ذِرْوَةَ العَمُودِ تَظَاهُراً بِأَنَّهُ مِنْ أَرْبَابِ الكَرَامَاتِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ سَأُحَدِّثُكَ يَامَوْلاَيَ فِي جَلْسَتِنَا هَذِهِ عَنْ بَعْضِ أَرْبَابِ الكَرَامَاتِ الحَقِيقِيَّةِ مِنْ أَهْلِ التُّقَىٰ وَالصَّلاَحِ ، وَكُنْتُ قَدْ صَادَفْتُهُمْ أَو سَمِعْتُ

بِأَخْبَارِهِمْ ، وَأَنَافِي اجْتِيَازِي لِلْمُدُنِ المِصْرِيَّةِ مِنْ الشَّمَالِ إِلَىٰ الجَنُوبِ ، وَمِنْ دُمْيَاطَ إِلَىٰ قِنَا وَالأُقْصُرَ وَأَسْنَا . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مُخَاطِباً كَاتِبَهُ :

ـ أُدْنُ يَابْنَ جُزَيٍّ ، وَدَوِّنْ كُلَّ مَا يَأْتِي عَلَىٰ لِسَانِ الرَّحَّالَةِ الأَمِينِ ابْنِ بَطُّوطَةَ .

ـ قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ الكَاتِبُ :

ـ سَمْعاً وَطَاعةً يَا مَوْلاَيَ .

وَشَرَعَ ابْنُ بَطُّوطَةَ فِي الحَدِيثِ فَقَالَ :

ـ خَرَجْتُ مِنْ مَدِينَةِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَمِنْ هَمِّي أَنْ أَزُورَ شَيْخاً صَالِحاً يُدْعَىٰ بِأَبِي عَبْدِ الله المُرْشِدِيِّ ، وَقَطَعْتُ إِلَيْهِ مُدُناً وَقُرىً حَتَّىٰ وَصَلْتُ إِلَيْهِ قَبْلَ صَلاَةِ العَصْرِ ، وَلَمَّا دَخَلْتُ زَاوِيَتَهُ الخَاصَّةَ قَامَ فَعَانَقَنِي ، وَمَا لَبِثَ أَنْ قَدَّمَنِي لِصَلاَةِ العَصْرِ إِمَاماً ، وَفِي اللَّيْلِ دَلَّنِي إِلَىٰ سَطْحِ الزَّاوِيَةِ فَصَعَدْتُ السَّطْحَ فِي أَوَانِ الحَرِّ ، فَوَجَدْتُ بِهِ حَصِيراً ، وَآنِيَةً لِلْوُضُوءِ ، وَجَرَّةَ مَاءٍ ، وَقَدَحاً لِلشُّرْبِ ، فَنِمْتُ هُنَالِكَ . وَلَيْلَتَهَا رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ

كَأَنِّي عَلَىٰ جَنَاحِ طَائِرٍ عَظِيمٍ يَطِيرُ بِي بِاتِّجَاهِ القِبْلَةِ حَتَّىٰ نَزَلَ فِي أَرْضٍ مُظْلِمَةٍ خَضْرَاءَ فَعَجِبْتُ مِنْ هَذِهِ الرُؤْيا ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنْ كَاشَفَنِي الشَّيْخُ المُرْشِدِيُّ بِرُؤْيَايَ فَهُوَ كَما يُحْكَىٰ عَنْهُ مِنْ أَرْبَابِ التُّقَىٰ وَالصَّلاَحِ وَالكَرَامَاتِ .

وَلَمَّا غَدَوْتُ لِصَلاةِ الصُّبْحِ عَادَ وَقَدَّمَنِي إِمَاماً ، وَبَعْدَ أَنْ انْفَضَّ المُصَلُّونَ ، كَاشَفَنِي بِرُؤْيَايَ ، وَكَأَنَّهُ كَانَ مَعِي فِي الحُلُمِ ،

فَلَمَّا اسْتَفْسَرْتُهُ الرُّؤْيَا قَالَ لِي : سَوْفَ تَحُجُّ وَتَزُورُ النَّبِيَّ وَتَجُولُ فِي بِلاَدِ اليَمَنِ وَالعِرَاقِ وَالتُّرْكِ ، وَتَبْقَىٰ بِهَا مَدّةً طَوِيلَةً ثُمَّ زَوَّدَنِي كُعَيْكَاتٍ وَدَرَاهِمَ وَانْصَرَفْتُ ، وَمُنْذُ فَارَقْتُهُ لَمْ أَلْقَ فِي أَسْفَارِي إِلاَّ خَيْراً :

تَجَاوَزْتُ مِنَ البُلْدَانِ المَحَلَّةَ الكَبِيرَةَ وَالبَرُلُّس وَتِنِّيسَ .

وَقَدْ حَدَّثُونِي فِي البَرُلُّسِ وَهُوَ مِينَاءٌ كَبِيرٌ يَقَعُ عَلَىٰ البَحْرِ ، عَنْ كَرَامَةِ رَجُلٍ صَالِحٍ أَنَّهُ كَانَ مُسْتَغْرِقاً فِي صَلاَتِهِ بَعْدَ أَنْ أَسْبَغَ الوُضُوءَ وَالطَّهَارَةَ فَسَمِعَ مِنْ خَلْفِهِ قَائِلاً يَقُولُ شِعْراً يُثْنِي فِيهِ عَلَىٰ أَهْلِ التُّقَىٰ وَالصَّلاَحِ وَيُشِيدُ بِفَضْلِ قِرَاءَةِ القُرْآنِ عَلَىٰ شَكْلِ أَوْرَادٍ يَلْتَزِمُهَا القَارِئُ التَّقِيُّ ،

وَيُحَذِّرُ مِنْ مَغَبَّةِ المَعْصِيَةِ ، وَمُخَالَفَةِ أَوَامِرِ الله ، عَزَّ وَجَلَّ .

قَالَ رَاوِي الحَدِيثِ : فَلَمَّا التَفَتَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَعْدَ التَّسْلِيمِ يَمِيناً وَيَسَاراً ، لَمْ يَجِدْ أَحَداً وَرَاءَهُ فَعَلِمَ أَنَّ الصَّوْتَ صَوْتٌ زَاجِرٌ مِنْ قِبَلِ رَبِّ العَالَمِينَ .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ مُعْتَذِراً إِلَىٰ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ المَرِينِيِّ الفَاسِيِّ :

ـ لَعَلِّيَ يَا مَوْلَايَ قَدْ أَطَلْتُ عَلَيْكَ فَأَمْلَلْتُ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ وَمَنْ قَالَ لَكَ هَذَا ؟ زِدْنِي مِنْ أَخْبَارِ الصَّالِحِينَ التُّقَاةِ ، وَعَجَائِبِهِم وَكَرَامَاتِهِمُ التِي أَسْبَغَهَا عَلَيْهِم رَبُّ العَالَمِينَ مِنْ فَضْلِهِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ إِنِّي مُسْمِعُكَ حِكَايَةً هِيَ مِنْ عَجَائِبِ الكَرَامَاتِ التِي وَرَدَتْ عَنِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ السَّاوِيِّ ، وَقَدْ سَمِعْتُهَا فِي زَاوِيَتِهِ بِمَدِينَةِ دِمْيَاطَ ، حَيْثُ الطَّائِفَةُ المُقْتَدِيَةُ بِهِ فِي حَلْقِ اللِّحَىٰ وَالحَوَاجِبِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ المَرِينِيُّ الفَاسِيُّ :

ـ هَاتِ مَا عِنْدَكَ بِلاَ ضَنٍّ وَلاَ تَحَرُّجٍ ، وَعَلَىٰ ابْنِ جُزِّيٍّ أَنْ يُدَوِّنَ مَا تَقُولُهُ لِيَبْقَىٰ الخَطُّ مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ دَرْساً مِنْ دُرُوسِ الفَضِيلَةِ لِلأَجْيَالِ الوَارِثَةِ . .

قَالَ الكَاتِبُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزِّيٍّ الكَلْبِيُّ :

أَنَا لَنْ أُقَصِّرَ فِي تَدْوِينِ مَا أَسْمَعُ بِإِذْنِ الله ، وَإِنْ كُنْتُ أَرْجُو مِنْ أَخِي ابْنِ بَطُّوطَةَ أَنْ يَتَرَوَّىٰ قَلِيلاً حَتَّىٰ أَعِيَ مَا أَكْتُبُ ، وَيَنْزِلَ مِنْ نَفْسِي ، مَنْزِلَتَهُ مِنْ نَفْسِ السَّامِعِ المُسْتَمِتعِ المُسْتَفِيدِ .

قَالَ أَبُو عَبْدِ الله شَمْسُ الدِّينِ ، ابْنُ بَطُّوطَةَ :

سَافَرْتُ فِي أَرْضٍ رَمِلَةٍ إِلَىٰ مَدِينَةِ دِمْيَاطَ ، وَهِيَ مَدِينَةٌ فَسِيحَةُ الأَقْطَارِ ، مُتَنَوِّعَةُ الثِّمَارِ ، عَجِيبَةُ التَّرْتِيبِ ، آخِذَةٌ مِنْ كُلِّ حُسْنٍ بِنَصِيبٍ . وَقَدْ بَدَتْ غَضَّةَ الإِهَابِ مُجَدَّدَةَ الشَّبَابِ ، فَبُنِيَتْ بِنَاءً حَدِيثاً بَعْدَ أَنْ خَرَّبَهَا الإِفْرَنْجُ فِي زَمَنِ المَلِكِ الصَّالِحِ ، فِي حَمْلَةٍ ظَالِمَةٍ غَاشِمَةٍ ، وَبِعُدْوَانِهَا آثِمَةٍ .

وَقَدْ قَصَدْتُ مُنْذُ وُصُولِي إِلَىٰ دُمْيَاطَ إِلَىٰ زَاوِيَةِ الشَّيْخِ التَّقِيِّ النَّقِيِّ

جَمَالِ الدِّينِ السَّاوِيِّ رَحِمَهُ الله ، وَقَدْ أَقَامَ فِيهَا الشَّيْخُ فَتْحٌ التَّكْرُورِيُّ وَطَائِفَةٌ مِنْ تَلَامِذَتِهِ وَمُرِيدِيهِ وَقَدْ دَأَبُو عَلَىٰ حَلْقِ لِحَاهِمْ وَحَوَاجِبِهِمْ أُسْوَةً بِشَيْخِهِمُ العَفِيفِ جَمَالِ الدِّينِ . وَاقْتِدَاءً بِهِ فِي طَلَبِ العِصْمَةِ مِنْ فِتْنَةِ النِّسَاءِ وَمَعَاصِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا المُذِلَّةِ .

وَحِينَ اسْتَخْبَرْتُ خَبَرَ أُسْتَاذِهِمُ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ حَدَّثُونِي بِالسَّبَبِ الدَّاعِي لَهُ إِلَىٰ حَلْقِ لِحْيَتِهِ وَحَاجِبَيْهِ ، فَوَقَفْتُ مِنْ خَبَرِهِ عَلَىٰ أَمْرٍ عَجَبٍ ، لَمْ أَشْهَدْ لَهُ نَظِيراً إلاَّ عِنْدَ الأَنْبِيَاءِ الصَّالِحِينَ وَالتُّقَاةِ المُقَرَّبِينَ إِلَىٰ مَوْلَاهُمْ رَبِّ العَالَمِينَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ .

قَالُوا عَنِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ السَّاوِي الدُّمْيَاطِيِّ :

إِنَّهُ كَانَ جَمِيلَ الصُّورَةِ ، حَسَنَ الوَجْهِ ، مُعْتَدِلَ القَوَامِ وَقَدْ عَلِقتْ بِهِ امْرَأَةٌ مِنْ مَعَارِفِهِ ، أَصْلُهَا مِنْ أَهْلِ سَاوَةَ وَسَاوَةُ بَلْدَةٌ كَانَتْ مَسْقطَ رَأْسِ الشَّيْخِ وَمُنْتَمَاهُ ، وَإِلَيْهَا نُسِبَ فَدُعِيَ بِالسَّاوِيِّ .

حَدَّثُوا عَنْ تِلْكَ المَرْأَةِ التِي أَصَابَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ مَسٌّ وَنَزْغٌ نَزَغَهُ فِي

رأْسِهَا فَإِذَا بِهَا مُطِيعَةٌ لِهَوَاهَا فِي المَعْصِيَةِ وَرُكُوبِ المُحَرَّمِ . . حَدَّثُوا بِأَنَّهَا كَانَتْ تُرْسِلُ مَرَاسِيلَهَا إِلَىٰ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ وَتَعْتَرِضُ سَبِيلَهُ فِي الطُّرُقَاتِ ، وَتَدْعُوهُ إِلَىٰ نَفْسِهَا لِيُصِيبَ مِنْهَا لَذَّتَهُ ، فَتُحَقِّقَ مُرَادَهَا مِنْهُ وَلَذَّاتِهَا عَلَىٰ مَا تَشْتَهِي ، وَكَمَا زَيَّنَتْ لَهَا نَفْسُهَا الأَمَّارَةُ . .

قَاطَعَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ حَدِيثَ ابْنِ بَطُّوطَةَ مُعَلِّقاً عَلَىٰ مَا سَمِعَ ، نَاظِراً فِي وَجْهِ كَاتِبِهِ بْنِ جُزَّيٍّ وَهُوَ يَقُولُ :

ـ صَدَقَتْ شَهَادَةُ رَبِّ العَالَمِينَ فِي نِسَاءِ البَشَرِ مِنْ بَنَاتِ حَوّاءَ حِينَ قَالَ عَنْهُنَّ : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ، وَمَا أَشْبَهَ صَاحِبَةَ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ ، بِصَاحِبَةِ يُوسُفَ ابْنِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ ، حِينَ أَطْلَقَتْ لِغِوَايَتِهَا عِنَانَهَا ، وَرَاوَدَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ .

قَالَ الكَاتِبُ ابْنُ جُزَّيٍّ وَقَدْ وَضَعَ رِيشَةَ الكِتَابَةِ إِلَىٰ جَانِبِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ :

ـ حَقاً . . إِنَّ كَيْدَهُنَّ عَظِيمٌ . .

وِالتَفَتَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ إِلَىٰ ابْنِ بَطُّوطَةَ قَائِلاً بِنَفَاذِ صَبْرٍ وَتَشَوُّقٍ مَلْهُوفٍ :

ـ وَافِنَا يَا أَبَا عَبْدِ الله بِبَقِيَّةِ الحَدِيثِ وَعَجِّلْ عَلَيْنَا بِهِ .

قَالَ ابْنُ بَطّوطَةَ شَمْسُ الدِّينِ الرَّحَّالَةُ الأَمِينُ :

ـ بَلَغَنِي أَيُّهَا السُّلْطَانُ الجَلِيلُ أَنَّ المَرْأَةَ المَاكِرَةَ التِي رَاوَدَتِ الشَّيْخَ جَمَالَ الدِّينِ عَنْ نَفْسِهِ ، حِينَ أَشْجَاهَا تَمَنُّعُهُ وَأَعْيَاهَا أَمْرُهُ ، زَادَتْ عَلَىٰ إِيقَاعِهِ فِي جَبَائِلِهَا إِصْرَاراً ، وَفَكَّرَتْ لِلْخُرُوجِ مِنْ مِحْنَتِهَا لَيْلاً وَنَهَاراً ، وَأَطْلَعَتْ عَلَىٰ مَأْرَبِهَا الخَفِيِّ عَجُوزاً شَمْطَاءَ كَانَتْ دَاهِيَةً فِي النِّسَاءِ ، فَقَالَتْ لَهَا : هَوِّنِي عَلَيْكِ يَا مَوْلاَتِي ، أَنَا لَكِ بِهِ ، وَأَشَارَتْ عَلَيْهَا بِخِطَّةٍ زَعَمَتْ أَنَّهَا سَتُفْقِدُ الشَّيْخَ عِصْمَتَهُ ، وَتُضِلُّهُ عَنْ رَشَادِهِ .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ : بَلَغَنِي يَا مَوْلاَيَ أَنَّ المَرْأَةَ العَجُوزَ تَصَدَّتْ لِلشَّيْخِ بَعْدَ كُمُونِهَا إِلَىٰ جَانِبِ دَارِهِ ، فَلَمَّا كَانَ فِي طَرِيقِهِ إِلَىٰ المَسْجِدِ اعْتَرَضَتْ سَبِيلَهُ وَبِيَدِهَا كِتَابٌ مَخْتُومٌ وَقَالَتْ لَهُ مُتَمَلِّسَةً مُسْتَأْنِسَةً .

ـ السَّلاَمُ عَلَيْك أَيُّهَا الشَّيْخُ الفَاضِلُ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ . . وَمَا كَادَ الشَّيْخُ يَرُدُّ عَلَىٰ سَلاَمِهَا بِسَلاَمٍ مِثْلِهِ حَتَّىٰ تَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ مُتَضَرِّعَةً مُسْتَرْحِمَةً وَهِيَ تَقُولُ :

ـ لاَ شَكَّ يَا سَيِّدِي أَنَّكَ تُحْسِنُ القِرَاءَةَ . .

قَالَ الشَّيْخُ :

ـ بَلَىٰ ، فَمَا خَطْبُكِ ؟

قَالَت العَجُوزُ :

ـ نَجَّاكَ الله مِنْ كُلِّ خَطْبٍ . اعْلَمْ يَا سَيِّدِي أَنَّ وَلَدِي مُسَافِرٌ وَقَدْ وَجَّهَ إِلَيَّ هَذَا الكِتَابَ ، وَرَجَائِي إِلَيْكَ أَنْ تَقْرَأَهُ عَلَيَّ عَسَىٰ لِلأُمِّ أَنْ تَسْتَرْوِحَ رَائِحَةَ الوَلَدِ . .

قَالَ الشَّيْخُ جَمَالُ الدِّينِ :

ـ لَكِ ذَلِكَ يَا أُخْتَاهُ ، حُبّاً وَكَرَامَةً .

فَلَمَّا فَتَحَ الكِتَابَ وَهَمَّ بِقِرَاءَتِهِ ، قَالَتِ العَجُوزُ المُحْتَالَةُ :

ـ يَا سَيِّدِي الكَرِيمَ الفَاضِلَ ، إِنَّ لِوَلَدِي صَاحِبِ الكِتَابِ امْرَأَةً خَشِيْتُ عَلَيْهَا الخُرُوجَ إِلَىٰ الزُّقَاقِ ، وَأَلْزَمْتُهَا حِجَالَهَا ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تُسْمِعَهَا مَا جَاءَ فِي كِتَابِ زَوْجِهَا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ؟ !

تَقَدَّمَ الشَّيْخُ جَمَالُ الدِّينِ وَبِيَدِهِ الكِتَابُ إِلَىٰ أَنْ وَلَجَ مَعَ العَجُوزِ بَابَ

الدّارِ . وَكَانَ خَلْفَ البَابِ بَابٌ آخَرُ ، فَلَمَّا تَوَسَّطَ بَيْنَ البَابَيْنِ أَغْلَقَتِ العَجُوزُ أَوَّلَ البَابَيْنِ بِإِحْكَامٍ ، وَخَرَجَتْ مِنَ البَابِ الدَّاخِلِيِّ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الجَوَارِي الشَّابَّاتِ البَادِيَاتِ العَافِيَةَ ، وَمَا لَبِثْنَ أَنْ تَعَلَّقْنَ بِالشَّيْخِ وَأَدْخَلْنَهُ إِلَىٰ دَاخِلِ الدَّارِ ، وَخَرَجَتْ سَيِّدَتُهُنَّ المَرْأَةُ العَاشِقَةُ المُسْتَهَامَةُ تَقُولُ مَقُولَةَ زَلِيخَةَ لِيُوسُفَ : ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ وَقَدْ غَلَّقَتِ الأَبْوَابَ مِنْ دُونِهِ .

وَرَاوَدَتْهُ المَرْأَةُ المَاكِرَةُ عَنْ نَفْسِهِ بِصَرِيحِ القَوْلِ وَالعِبَارَةِ . فَلَمَّا رَأَىٰ أَنْ لاَ مَنَاصَ وَلاَ خَلاَصَ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ تَظَاهَرَ بِالمُوَافَقَةِ وَالرِّضَىٰ وَقَالَ لِصَائِدَتِهِ المَاثِلَةِ أَمَامَهُ :

ـ هَلْ لِي قَبْلَ أَنْ نَتَوَاصَلَ ، بِالدُّخُولِ إِلَىٰ الخَلاَءِ ؟ خَلَّتِ المَرْأَةُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَاجَتِهِ ، وَدَلَّتْهُ عَلَىٰ بَيْتِ الخَلاَءِ ، فَدَخَلَ إِلَيْهِ وَمَعَهُ بَعْضُ المَاءِ ، وَكَانَتْ عِنْدَهُ مُوسٌ جَدِيدَةٌ ، فَحَلَقَ لِحْيَتَهُ وَحَاجِبَيْهِ ، وَخَرَجَ عَلَىٰ المَرْأَةِ المُرَاوِدَةِ ، فَصَعَقَهَا بِمَا تَغَيَّرَ مِنْ مَنْظَرِهِ وَاسْتَقْبَحَتْ هَيْئَتَهُ ، وَاسْتَنْكَرَتْ فِعْلَهُ ، وَسَارَعَتْ لأَمْرِ جَوَارِيهَا بِإِخْرَاجِهِ فَقَذَفْنَ بِهِ خَارِجَ الدَّارِ ، فِي مَوْجَةٍ مِنَ الضَّحِكِ وَالشَّتَائِمِ القَبِيحَةِ . وَسُرَّ الشَّيْخُ جَمَالُ

الدِّينِ فِي دَاخِلِهِ ، لأَنَّ اللهَ قَدْ عَصَمَهُ مِنَ المَعْصِيَةِ ، وَخَذَلَ بِهِ الشَّيْطَانَ وَحِزْبَهُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي شَهِدَ اللهُ بِأَنَّ كَيْدَهُنَّ عَظِيمٌ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ لِمُحَدِّثِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ . وَقَدْ بَدَا عَلَيْهِ مِنَ الإِنْشِرَاحِ لِطَرَافَةِ مَا سَمِعَ :

ـ لاَ فُضَّ فُوكَ . . لاَ فُضَّ فُوكَ . . هَذِهِ قِصَّةٌ مِنْ أَعْجَبِ العَجَائِبِ ، وَصَدِّقْ أَنَّنِي لَنْ أَحْرِمَكَ مِنَ المَكَافَأَةِ عَلَىٰ حِفْظِهَا وَرِوَايَتِهَا . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ أَنَا فِي طَاعَةِ مَوْلاَيَ السُّلْطَانِ وَخِدْمَتِهِ ، وَحَسْبِي مِنَ المُكَافَأَةِ مَا وَجَدْتُهُ مِنَ الإِصْغَاءِ فِي أَوَّلِهَا ، وَمِنَ الثَّنَاءِ فِي آخِرِهَا . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ . . وَلَكِنْ بِاللهِ عَلَيْكَ ، أَعِنْدَكَ خَبَرٌ بِمَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ مَصِيرُ ذَلِكَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ السَّاوِيِّ ؟

أَجَابَ الرَّحَّالَةُ المُحَدِّثُ بِالعَجَائِبِ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ يُذْكَرُ يَا مَوْلاَيَ السُّلْطَان أَنَّ الشَّيْخَ جَمَالَ الدِّينِ بَعْدَمَا جَرَىٰ لَهُ مَا جَرَىٰ مَعَ المَرْأَةِ الخَبِيثَةِ المَاكِرَةِ ، قَدْ تَرَكَ الإِقَامَةَ فِي بَلَدِهِ سَاوَةَ ، وَجَاءَ إِلَىٰ دِمْيَاطَ ، وَلَزِمَ فِيهَا المَقْبَرَةَ يَتَهَجَّدُ وَيَتَعَبَّدُ وَيَعْتَبِرُ بِالمَوْتِ وَالأَمْوَاتِ ، وَكَانَ يَتَقَوَّتُ بِالقَلِيلِ القَلِيل مِنَ الزَّادِ وَالمَاءِ . وَذَاتَ يَوْمٍ جِيءَ إِلَىٰ المَقْبَرَةِ بِجَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَعْيَانِ وَكَانَ فِي المُشَيِّعِينَ قَاضِي المَدِينَةِ وَكَانَ فِي زَهْوٍ وَاعْتِدَادٍ بِالنَّفْسِ ، فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّيْخَ جَمَالَ الدِّينِ السَاوِيَّ فِي ظَاهِرِ المَقْبَرَةِ ، لَمْ يُعْجِبْهُ مَنْظَرُهُ لَمَّا بَدَا فِيهِ مِنَ التَنَسُّكِ وَالثَّوْبِ الوَضِيعِ وَالوَجْهِ الذَّابِلِ وَاللِّحْيَةِ الحَلِيقَةِ . وَلَمْ يُخْفِ اسْتِخْفَافُهُ بِالشَّيْخِ صَاحِبِ العِفَّةِ وَالنَزَاهَةِ وَالنُّسُكِ ، فَقَالَ لَهُ مُتَجَاهِلاً قَدْرَهُ :

ـ أَنْتَ هُوَ الشَّيْخُ المُبْتَدِعُ ؟ !

فَرَدَّ الشَّيْخُ عَلَىٰ سَائِلِهِ المُسْتَخِفّ بِاتِّهَامٍ هُوَ مِنَ الحَرَامِ المُسْتَنْكَرِ :

ـ وَأَنْتَ هُوَ القَاضِي الجَاهِلُ الذِي يَمُرُّ بِدَابَّتِهِ بَيْنَ القُبُورِ ، وَكَأَنَّهُ لاَ يَدْرِي أَنَّ حُرْمَةَ الإِنْسَانِ مَيْتاً كَحُرْمَتِهِ حَيّاً ؟ !

فَقَالَ القَاضِي المُتَطَاوِلُ معَرِّضاً بِالكَلَامِ مُتَهَكِّماً

ـ وَمَاذَا عَنْ حَلْقِكَ لِلِحْيَتِكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ المُتَّقِي ؟ !

قَالَ الشَّيْخُ جَمَالُ الدِّينِ السَّاوِيُّ :

ـ إِيَّايَ تَعْنِي ؟ !

وَمَا كَانَ مِنَ الشَّيْخِ الزَّاهِدِ صَاحِبِ الكَرَامَاتِ إِلاَّ أَنْ زَعَقَ زَعْقَةً ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا هُوَ ذُو لِحْيَةٍ سَوْدَاءَ عَظِيمَةٍ .

فَذُهِلَ القَاضِي الفُضُولِيُّ بِمَا رَأَىٰ ، وَتَعَجَّبَ غَايَةَ العَجَبِ وَتَرَجَّلَ عَنْ دَابَّتِهِ . وَزَعَقَ الشَّيْخُ جَمَالُ الدِّين زَعْقَةً ثَانِيَةً ، فَإِذَا هُوَ ذُو لِحْيَةٍ بَيْضَاءَ مُشْرِقَةِ الحُسْنِ ، ثُمَّ زَعَقَ زَعْقَةً ثَالِثَةً فَإِذَا هُوَ بِلاَ لِحْيَةٍ كَهَيْئَتِهِ الأُولَىٰ .

انْحَنَىٰ القَاضِي عَلَىٰ يَدِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ فَقَبَّلَهَا مُعْتَرِفاً بِفَضْلِهِ وَكَرَامَتِهِ ، وَأَعْلَنَ نَفْسَهُ تِلْمِيذاً مُطِيعاً لِلشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ مَدَىٰ حَيَاتِهِ . .

وَجَهِدَ القَاضِي إِبَّانَ حَيَاتِهِ وَمَنْصِبِهِ فِي القَضَاءِ لِيَكُونَ عَادِلاً رَحِيماً مُتَوَاضِعاً لِلْحَقِّ وَالدِّينِ ، وَبَنَىٰ لأُسْتَاذِهِ النَّاسِكِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ السَّاوِيِّ زَاوِيَةً حَسَنَةً .

وَقَدْ جَرَىٰ فِي عِلْمِي أَنَّ الشَّيْخَ جَمَالَ الدِّينِ رَحِمَهُ الله قَدْ دُفِنَ لَدَىٰ

مَمَاتِهِ فِي تِلْكَ الزَّاوِيَةِ ، وَأَنَّ قَاضِيَ دِمْيَاطَ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ قَدْأَوْصَىٰ أَنْ يُدْفَنَ بِبَابِ الزَّاوِيَةِ ، وَكَانَتْ غَايَتُهُ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْ مَاضِيهِ بِوَطءِ القُبُورِ بِدَابَّتِهِ بِأَنْ يَسْمَحَ لِكُلِّ زَائِرٍ لِلزَّاوِيَةِ وَضَرِيحِهِا حَيْثُ يَرْقُدُ شَيْخُهُ الجَلِيلُ المُكَرَّمُ ، يَسْمَحَ لَهُ بِأَنْ يطَأَ قَبْرَهُ تَوَاضُعاً لله وَعِبَادِهِ أَجْمَعِينَ . .

وَلاَ يَزَالُ مَزَارُ الشَّيْخِ التَّقِيِّ المُلْتَحِي بِلِحْيَةٍ مِنَ النُّورِ وَالرِّضَىٰ الإِلَهِيِّ مَزَاراً ظَاهِرَ البَرَكَةِ يَقْصِدُهُ أَهْلُ الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَلَهُ أَيَّامٌ فِي السَّنَةِ مَعْلُومَةٌ لِذَلِكَ . .

أَمَّا نُزُولِي أَيَّامَ إِقَامَتِي بِدِمْيَاطَ فَقَدْ كَانَ بِمَدْرَسَةٍ عَلَىٰ شَاطِئِ النِّيلِ بَنَاهَا القَاضِي المُحْسِنِيُّ ، وَلَقِيتُهُ فِيهَا فَعَامَلَنِي بِالمَوَدَّةِ وَالإِحْسَانِ كَإِحْسَانِ مَوْلاَيَ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ حَفِظَهُ الله وَرَعَاهُ . .

هَنَا انْتَهَتْ حِكَايَةُ التَّقِيُّ المُلْتَحِي ، وَتَلِيهَا حِكَايَةُ المِنْبَرِ الوَفِيِّ مِنْ عَجَائِبِ ابْنِ بَطُّوطَةَ .

☆☆ ☆☆ ☆☆